النقد الثقافي: قراءة في المصطلح والمفهوم

بوطغان رتيبة
جامعة محمد الصديق بن يحي - جيجل
ratiba.btgh@yahoo.com

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019-01-03	2019-02-17	2019-12-01

ملخص :

في أواخر القرن الماضي، حدثت هناك نقلة نوعية في مجال الأدب والنقد، أو لنقل في الثقافة، لاعتبارها مجالا أوسع من النقد والأدب، حدث هذا مع بروز نوع جديد من الدراسات قام بالانفتاح على مختلف أشكال الثقافة، وقد اصطلح على هذا النوع الجديد ب"النقد الثقافي"، ومنه نتساءل: ما العلاقة التي تربط بين المصطلح ومفهومه؟ ما هي علاقة هذا المصطلح (النقد الثقافي) بمفهومه؟ ما هي العلاقة التي تربط بين النقد والثقافة؟ وهل علاقة النقد بالثقافة علاقة جديدة ظهرت بظهور النقد الثقافي؟ أم أنها قديمة قدم النقد ذاته؟

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، النقد، الثقافة، المصطلح، المفهوم. مقدمة

تقديم:

شكل ظهور النقد الثقافي في أواخر القرن الماضي تحولا كبيرا في مجال الممارسة النقدية، تمثل هذا التحول في الانتقال من نقد الأدب إلى أفق أوسع وأشمل وهو نقد الثقافة، هذه الأخيرة التي أصبحت تشمل الثقافات النخبوية، والثقافات الشعبية المهمشة، وكذلك ثقافة الصورة وثقافة العلوم وغيرها.

وقد ارتكز النقد الثقافي في دعواه هذه، على مختلف العلوم والمعارف والمجالات، التي شكلت أرضية صلبة انطلق منها في مقارباته الثقافية، وأولها هو مجال النقد الأدبي، الذي يشمل المناهج السياقية والمناهج النسقية، إضافة إلى نظريات القراءة، ارتكز النقد الثقافي أيضا على علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم مختلفة، كما استفاد من تطورات العلوم المختلفة، ليشكل بذلك خليطا أو مزيجا من المجالات والمعارف المختلفة، قام باستثمارها بشكل مميز وفريد في ممارساته النقدية وتحليلاته الثقافية.

والجدير بالذكر أن الفكرة الجوهرية التي قام عليها النقد الثقافي والتي تعد بمثابة المحور الأساسي لهذا المشروع، هي فكرة "نقد الأنساق المضمرة" والمقصود بها هو نقد العيوب النسقية المضمرة والمتخفية تحت أقنعة كل ما هو جمالي في النصوص الأدبية والثقافية بصفة عامة، هذا بالإضافة إلى رد الاعتبار للخطابات المهمشة من قبل النقد الأدبي، ولهذا اشترط النقد الثقافي في كشفه لهذه الأنساق المضمرة أن يكون النص شعبويا وجماهيريا بالدرجة الأولى.

أولا: جدلية المصطلح والمفهوم:

مما لا شك فيه أن لكل مفهوم مصطلح، فالمصطلح هو الأداة التي بها يتم التعبير عن المفهوم، إذ هو تسمية «صيغت وفق خصائص اللغة للدلالة على ماهية شيء محدد، وحصلت على اتفاق المختصين»[1] كما أنه «"وحدة لغوية" أو"عبارة" لها دلالة لغوية أصلية ثم أصبحت هذه الوحدة أو العبارة تحمل دلالة اصطلاحية خاصة ومحددة في مجال أو ميدان معين، لعلاقة ما تربط بين الدلالة اللغوية الأصلية والدلالة الاصطلاحية الجديدة»[2]، وهنا تتضح العلاقة الكائنة بين المصطلح والمفهوم، إذ يجب أن تكون هناك علاقة ترابطية بين المفهوم والمصطلح الذي وضع للدلالة على هذا المفهوم، وهذه التسمية أو هذا المصطلح من خصائصه وسماته الدقة والوضوح والدلالة المباشرة على المفهوم الذي وضع له.

إن أول ما تلاحظه على الساحة النقدية والأدبية العربية المعاصرة هو وجود عدة مشاكل يعاني منها المصطلح، ومنها إشكالية المصطلح والمفهوم،حيث أصبحت هذه الإشكالية من أوائل الإشكاليات

التي تقابلك إذا ما حاولت الطلاع على ملامح المصطلح العربي المعاصر، هذه الإشكالية أي إشكالية تعدد المصطلح التي خصصت لها العديد من الدراسات والبحوث والرسائل الجامعية والكتب المستقلة، في محاولة منها لإيجاد حلول لهذه المشكلة التي تختلف مظاهرها وتتعدد أسبابها.

فالمصطلح يعني اتفاق القوم على مفهوم معين، والاتفاق لا يكون إلا بعد الاختلاف، و هو ما يؤكده الجرجاني في تعريفاته بقوله:

«الاصطلاح: عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما

وقيل: الاصطلاح: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى

وقيل: الاصطلاح: إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر، لبيان المراد

وقيل:الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين»[3]

وفي قول الجرجاني تأكيد على أن المصطلح هو الاتفاق على تسمية شيء معين أي وضع مصطلح لمفهوم واضح، وهذا يكون بين قوم معينين، أي من تخصص واحد.

إن ما نؤكد عليه هنا، هو أن تعدد المصطلحات لا يزيد المفهوم إلا اضطرابا، لأن المصطلح من سماته الدقة والوضوح، ويجب أن يدل بشكل مباشر على مفهومه الذي وضع للدلالة عليه. لنصل إلى أن هناك علاقة جدلية بين المصطلح والمفهوم أي علاقة تأثير وتأثر بينهما، وأي اختلال في أحد الطرفين سيؤدي بالضرورة إلى التأثير سلبا على الآخر.

ثانيا: النقد الثقافي/ تفكيك المصطلح:

يتكون مصطلح "النقد الثقافي" من كلمتين وهما: (النقد) و(الثقافة)، ولتحديد مفهوم لهذا المصطلح يجب أولا وقبل كل شيء تفكيكه، ثم تعريف أو تحديد مفهوم كل كلمة يتكون منها، وهذا من أجل إبراز العلاقة الموجودة بينهما.

1- النقد:

استعمل لفظ النقد في العربية الفصيحة لمعان مختلفة، منها:[4]

- تمييز الجيد من الرديء من الأشياء، فقالوا النقد والتناقد، فنقدت الدراهم وانتقدتها: أي أخرجت الزيف وميزت جيدها من رديئها، وقد استعمل هذا اللفظ قديما ليدل على ذلك المعنى.

- هو ما يدل على العيب والانتقاص، قالت العرب: نقدته الحية إذا لدغته، ونقدت رأسه بأصبعي إذا ضربته، ونقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها....

وهذا هو المفهوم اللغوي للنقد، أما الدلالة الاصطلاحية للنقد فنجدها تتمحور حول «فن تقويم الأعمال الأدبية، وتحليلها تحليلا قائما على أساس علمي، أو هو الفحص العلمي للنصوص الأدبية من حيث مصدرها، وصحة نصها، وإنشاؤها وصفاتها وتاريخها»[5]. وهذا التعريف يحصر النقد في مجال النصوص الأدبية فقط.

ومن خلال هذا التحديد الدلالي يذهب معجم آخر[6] إلى أن النقد هو فن تحليل الآثار الأدبية، والتعرف إلى العناصر المكونة لها للانتهاء إلى إصدار حكم يتعلق بمبلغها من الإجادة. وهو يصفها أيضا وصفا كاملا معنى ومبنى، ويتوقف عند المنابع البعيدة والمباشرة، والفكرة الرئيسية، والمخطط، والصلة بين الأقسام، وميزات الأسلوب، وكل مركبات الآثار الأدبية.

والنقد أنواع، نذكر منها:[7]

أ- النقد الانطباعي: وهو نقد شخصي.

ب- النقد التفسيري: وهو تحليل يحاول فيه صاحبه تعليل ولادة الآثار الفنية ومضمونها بتأثير البيئة ونفسية الكاتب وعرقه وزمنه.

ج- النقد الشخصي: وهو المعبر عن مفهوم الجمال والذوق لدى الناقد.

د- النقد الموضوعي: وهو الذي يدعي الاستناد إلى سلم مستل من القيم مستقل عن ذوق الناقد وعواطفه.

ويتبع في هذه الأنواع مناهج مختلفة باختلاف النقاد، منها: التاريخي، والنفسي، والفني...، كما يمكن لهذه المناهج أن تتعاون في أسلوب متكامل ومتناسق.

كما تكشف العملية النقدي تلك الملامح التي توضح اتجاه المؤلف في أثره، وخاصة ما تعلق بالجوانب التالية:[8]

أ- العرق المنتمي إليه.

ب- البيئة والطبيعية الأخلاقية، من تربية، ومطالعة، وعادات، وتقاليد، وأفكار شائعة.

ج- العوامل الفردية، والعناصر النفسية التي تكون شخصية المؤلف.

د- طريقة التعبير من حيث الشكل، والمفردات، والتركيب، أو ما يؤلف الأسلوب.

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الناقد يجب عليه أو يجب أن يكون صاحب حس نقدي، وثقافة واسعة في شتى الميادين، بداية من مضمرات النص وخفاياه، وصولا إلى ما هو خارج النص من مجتمع وتاريخ وثقافة، وذلك من أجل الإحاطة بالنص وبمؤلفه.

2- الثقافة:

إن مفهوم الثقافة يتغير من مجال معرفي إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وهي تدل في المجتمعات العربية على: «حالة الفرد التعليمية والعلمية الرفيعة المستوى، في حين تستخدم في اللغات الأوروبية لتشير إلى حالة اجتماعية شعبية أكثر منها حالة فردية لتدلّ على مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري»[9]

وتتميز الثقافة بخاصية «الدوام والاستمرار عبر الزمن، بسبب قدرتها على تخليد نفسها، وعلى البقاء بعد موت أو فناء أي من الأفراد الذين ساهموا فيها»[10].

فالثقافة -من هذا المنظور- هي الحاضن الأساسي لتراث الأمم، وهي التي تعمل على تخليده وترسيخه ونقله من جيل إلى آخر، فما هو إذن الدافع إلى ربط مصطلح النقد بمصطلح الثقافة؟ ثم ما هو المفهوم الذي سيتولد جراء ربط هذين المصطلحين مع بعضهما بعض؟ وهل هناك من اعترض على هذه التسمية أم لا؟

ثالثا: النقد الثقافي/تحديد المفهوم:

يعد النقد الثقافي من أهم الاتجاهات النقدية المعاصرة في مقاربة النصوص والخطابات الأدبية بصفة خاصة والثقافية بصفة عامة، ويقصد به -أي النقد الثقافي- تلك الممارسة أو ذلك النشاط الفكري الذي «يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها[11]»

بمعنى أن النقد الثقافي ليس منهجا للدراسة، بل هو ممارسة تتجاوز الأدب بوصفه مجالا ضيقا لممارسة النقد، إلى الثقافة التي أصبحت تعد مجالا خصبا للدراسات النقدية، ويمكن الإشارة إلى أن هذه الرؤية أو هذه الممارسة ظهرت في المرحلة التي تلت ما بعد الحداثة، لتحدث تغييرا على المستوى النظري والإجرائي؛ أي أن النقد الثقافي يعد نقلة نوعية فريدة ومتميزة في مجال الممارسة النقدية، والتي تتمثل في الانتقال من تعرية النصوص الأدبية إلى تعرية الثقافة.

ويمكن الإشارة إلى أن أول من استخدام هذا المصطلح - أي النقد الثقافي- عند الغرب هو "فنسنت ليتش" والذي «أراد به الإشارة إلى نوع من النقد يتجاوز البنيوية وما بعدها، والحداثة وما

بعدها، إلى نقد يستخدم السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية دون أن يتخلى عن مناهج النقد الأدبي»[12]

والعمل الأدبي من منظور" ليتش" هو ظاهرة ثقافية مفتوحة يتم تحليلها من وجهات نظر عديدة وجوانب مختلفة، لأن الثقافة دينامية، نشطة، وحيوية، ومتعددة الأوجه، تدخل فيها مختلف التخصصات المعرفية، كالاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والقيم الأخلاقية والمعنوية والمعتقدات الدينية والممارسات النقدية والأبنية السياسية وأنظمة التقييم وما إلى ذلك، ولأن الافتراضات والتقاليد التي تحافظ الثقافة عليها غير واعية في أكثر الأحيان بل ومتعادية»[13]. وفي هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى أن هناك عادات وتقاليد تتضمنها الثقافة تكون غير واعية من طرف أفراد تلك الثقافة وتتحكم فيهم دون وعي منهم، وهذا ما يعرف بالنسق المضمر.

النقد الثقافي إذن، «مهمّة متداخلة، مترابطة، متجاوزة، متعددة، كما أن نقّاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة. وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد، وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضا أن يفسّر (نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية....) ودراسات الاتصال، وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة وحتى غير المعاصرة »[14] ، وهو ما يدل على أن النقد الثقافي قام على أنقاض النقد الأدبي بمختلف فروعه ومناهجه ومراحله المختلفة، بدء من المرحلة السياقية، هذا بالإضافة إلى علوم أخرى.

من هنا اهتمت الدراسات الثقافية بمجموعة من القضايا، ومن بين أهم هذه القضايا ثقافة العلوم وثقافة الصورة (الميديا) والثقافة الجماهيرية والدراسات السياسية والاجتماعية كذلك .

كما اهتمت «باستكشاف الثقافة كبناء مشكّل من المعاني والتمثيلات الناتجة عن الممارسات الدّالة، والسياق الذي تم حدوثهما فيه، كما يهتم الحقل بشكل خاص بالعلاقة بين السلطة والنتائج السياسية المتأصلة في هذه الممارسات الثقافية»[15]، وفي هذا تأكيد على دور السلطة وتأثيرها في الممارسات الثقافية وخاصة النصوص الإبداعية.

إلا أن هناك من يخلط بين مصطلح النقد الثقافي ومصطلح الدراسات الثقافية، وكذلك مصطلح النقد الحضاري، هذا الأخير الذي يجعل من الحضارة مرادفا للثقافة، ولهذا نوضح أن الدراسات الثقافية (Cultural Studies) هي التي «تهتم بكل ما يتعلق بالنشاط الثقافي الإنساني [.....]، والنقد

الثقافي (Cultural Criticism)، يحلّل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية»[16].

وهنا، يتضح لنا بأن دائرة الدراسات الثقافية أوسع من دائرة النقد الثقافي، فالأولى – أي الدراسات الثقافية- تشمل كل أنواع الثقافات سواء كانت ثقافة نخبوية أو ثقافة شعبية، أما الثانية –أي النقد الثقافي- فتهتم بدراسة وتحليل النصوص تحليلا ثقافيا في ضوء سياقاته المختلفة: النفسية، التاريخية، الاجتماعية، الثقافية....

ويمكن الإشارة إلى أن الدراسات الثقافية انتشرت بشكل متميز في الغرب «منذ سنة 1964م وذلك مع تأسيس مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، وبروز مدرسة في فرانكفورت في الأبحاث الثقافية ذات الطابع النقدي والسوسيولوجي[17]».

كما أشار إلى ذلك رائد النقد الثقافي في الوطن العربي "عبد الله محمد الغذامي"، والذي ينسب إليه مصطلح النقد الثقافي، فيرى أن النقد الثقافي هو «فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معنيٌّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه، وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معني بنقد لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/ الجمالي [.....] مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة[18]».

من هذه النقطة انطلق النقد الثقافي، جازما بأن الثقافة «في جوهرها عملية سياسية [.....] إن الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى، وأحيانا الوحيدة، المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية أو تريد الحفاظ عليها[19]»، متخذة من الخطاب الثقافي وسيلة للسيطرة.

إذا كانت الثقافة في جوهرها ما هي إلا وسيلة للسيطرة أو للهيمنة السياسية أو الدينية أو الاجتماعية، فإنه من المستحيل دراستها في معزل عن سياقها الاجتماعي أو السياسي...، لذا قام النقد الثقافي بـ«رفع الحواجز بين التخصصات والمستويات في الممارسات الإنسانية لأنها تنتمي جميعا إلى الثقافة التي هي مجمل صنيع الإنسان في البيئة والطبيعة»[20].

وفي ظل هذا المقام نشير إلى أن هناك من يعترض على تسمية هذه الممارسة أو هذا النشاط النقدي بالنقد الثقافي، حيث يقر بأن النقد في أصله جهد أو نشاط ثقافي لا يخرج عن إطار الممارسة الثقافية، يقول "بسام قطوس" مثلا: «فالتسمية أصلا "النقد الثقافي" "مضللة ومدعية"، ويقوم الجزء

الثاني منها بمصادرة الأول، فالنقد والنقاد وكذلك المناهج النقدية تمارس فعلا ثقافيا، لأن النقد أصلا هو فعل ثقافي، فما الحاجة إذن إلى تقييده مرة أخرى بوصف ثقافي؟»[21].

صحيح أن النقد في أصله ممارسة ثقافية، وتعتمد على ثقافة الناقد بالدرجة الأولى، ولكن هذه الممارسة لا تهتم بالثقافة وتمظهراتها في النصوص الأدبية، وهذا هو الفرق الجوهري بين النقد الأدبي والنقد الثقافي. فهل يمكن أن تكون هذه التسمية مضللة ومدعية فعلا؟

ويضيف الناقد متسائلا عن نوع الثقافة التي ستسود النقد الثقافي والتي لابد أن يقدم –النقد الثقافي- إجابة عنها: «من حق الدارس أن يتساءل أي ثقافة سوف تسود "النقد الثقافي"؟ هل هي ثقافة الخاص أم العام؟ ثقافة الهامش أم المركز؟ ثقافة النخب أم العامة؟ ثقافة المصالح الشخصية الذاتية أم ثقافة الطبقات الكادحة؟ ثقافة الذكور أم ثقافة الإناث؟[22]».

- خلاصة:

ما يمكن قوله في الأخير هو أن مصطلح النقد الثقافي دار حوله جدل كثير بين مؤيد ومعارض، وإن كان هذا الاختلاف أمرا لابد منه حول أي مشروع يدخل أول مرة حيز التنفيذ. إلا أننا نستخلص ونؤكد على أن النقد الثقافي هو ممارسة تهدف إلى استكناه واستكشاف الدلالات الخفية والمضمرة للنصوص الأدبية، ولا نقصد هنا النصوص المكتوبة فقط، بل حتى الشفوية، لا نقصد أيضا النصوص التي تنتمي إلى المؤسسة فقط بل النصوص المهمشة والمنفية من طرف النقد الأدبي، وذلك من خلال ربط هذه النصوص بسياقاتها السياسية والدينية والاجتماعية.

الهوامش:

---

(1) عمار ساسي: المصطلح في اللسان العربي من آلية الفهم إلى أداة الصناعة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2009، ص92.

(2) عبد الرحيم محمد عبد الرحيم: أزمة المصطلح في النقد القصصي، مجلة فصول، المجلد السابع، العدد 3-4 سبتمبر 1987، ص98.

(3) علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2002، ص30.

(4) حميد آدم ثويني: منهج النقد الأدبي عند العرب، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص11.

(5) مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2، 1984،ص417.

(6) ينظر، جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص283.

(7) ينظر، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[8] ينظر، المرجع نفسه،ص283-284.

[9] عدنان يوسف العتوم، قاسم محمد كوفحي، شوقي محمد ميرزا: التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، دط، 2011، ص49.

[10] المرجع نفسه، ص51.

[11] ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي-إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص305.

[12] إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط2، 2007، ص138-139.

[13] ينظر، فنسنت ب، ليتش: النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات، تر: محمد يحيى، مراجعة وتقديم: ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، دط، ص104.

[14] أرثر أيزا برجر: النقد الثقافي تمهيد للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003، ص30-31.

[15] Barker C.(2004) Sage dictionary of cultural studies.london:sage.p21,

[16] جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي في مرحلة النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مكتبة الألوكة، ص75.

[17] المرجع نفسه، ص78.

[18] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2005، ص83-84.

[19] محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء، بيروت، ط11، 2011، ص6-7.

[20] صلاح قنصورة: تمارين في النقد الثقافي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2007، ص11.

[21] بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط3، 2002، ص227.

[22] المرجع نفسه،ص229.